المحاضرة الرابعة : النماذج الوضعاتية

(نموذج نظرية الإعلام" الرياضية – المعلومات" ، الاتصال على مستويين)

تمهيد:

ضمن سياقات ديناميكية تميزت بالحرص على نقل النماذج العلمية الخاصة بالعلوم الدقيقة إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية، لعبت نظرية المعلومات، منذ نهاية الأربعينيات دورا مركزيا في هذا التوجه، فقد حصلت فكرة "المعلومات" اعتمادا على الآلات الاتصالية التي أفرزتها الحرب على شرعيتها النهائية باعتبارها رمزا يمكن إخضاعه للتكميم. ولم تكتف الاستفادة من هذا الجانب لتظهر لنا البحوث الوظيفية التجريبية التي تسعى دائما لتكميم الظاهرة ومنه نموذج الاتصال على مستويين.

1. نموذج نظرية الإعلام " الرياضية – المعلومات" :

- **البدايات الأولى:**

في سنة 1948، نشر الامريكي (كلود إيلوود شانون) دراسة تفصيلية بعنوان : "النظرية الرياضية للاتصال"، وذلك في إطار منشورات بحوث مختبرات بال سيستم، أحد فروع الاتصالات الامريكية المعروفة باسم ATT. وفي السنة اللاحقة تحولت هذه الدراسة إلى كتاب طبعته جامعة إيلنوا، متضمنا تعليقات وشروحات (وارن ويفر)، منسق البحوث حول الحاسبات الآلية الكبيرة، خلال الحرب العالمية الثانية، وكان قد التحق (شانون) بمختبرات بال سنة 1941، حيث عمل خلال الحرب، باعتباره مهندس الكترونيات، في ميدان الكريبتوغرافيا (فك الشفرات)، وقد تمكن خلال عمله في فك الشفرات السرية من صياغة فرضياته حول النظرية الرياضية للمعلومات.

- **الخلفية المعرفية للنموذج:**

تمثل هذه النظرية ذروة الجهود البحثية التي بدأت، في العقد الأول من القرن العشرين، بالأعمال البحثية لعالم الرياضيات الروسي (ماركوف) حول نظرية الرموز التسلسلية في الأدب، وقد تواصلت هذه الأبحاث مع فرضيات الأمريكي (هارتلي) الذي اقترح لأول مرة، سنة 1927 الوحدة القياسية الأولى الدقيقة لقياس المعلومات في ارتباطها ببث الرموز، هذه الرموز هي الصيغة الأولى للبيتBIT ولغة التعاكس الثنائي ، ولاحقا، ظهر عالم الرياضيات البريطاني (آلن تورينغ) الذي ابتكر سنة 1936 مخططا بيانيا لآلة قادرة على معالجة المعلومات، كما تجدر الاشارة إلى بحوث (جون فون نومان) الذي ساهم في بناء آخر أكبر حاسبة آلة الكترونية، ومن ناحية ثانية أفكار (نوربرت وينر) مؤسس السيبرنطيقا، الذي تابع شانون محاضراته.

- **الأفكار الأساسية للنموذج:**

حتى نسهل مراجعة الأفكار الأساسية للنموذج سنحاول تبسيطها في مجموعة من النقاط التالية:

- **اقترح (شانون) بنية" نظام عام للاتصال" فمشكلة الاتصال تكمن في إعادة إنتاج رسالة ما بطريقة دقيقة أو تقريبية من نقطة ما مختارة إلى نقطة أخرى.**
- **هذه البنية خطية حيث تحدد الأقطاب مصدرا ونهاية، يرتكز الاتصال على المكونات التالية: المصدر، الرسالة، المشفر أو المرسل الذي يقوم بتحويل الرسالة عبر قناة إلى متلقي وأخيرا الوجهة.**

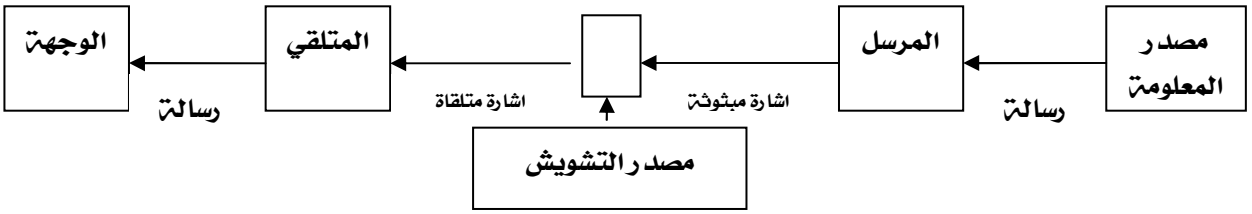

- هدف (شانون) من ذلك هو رسم الإطار الرياضي الذي يمكننا من حساب تكلفة رسالة ما، أو اتصال ما بين وحدات هذا النظام في سياق اضطرابات عشوائية غير مرغوب فيها أطلق عليها تسمية " التشويش".
- يحيل التشويش كل ما يمكن أن يمنع التوافق أو التناغم بين القطبين، فإذا أردنا تخفيف التكلفة إلى حدودها الدنيا، وجب علينا نقل الإشارات المناسبة بأقل التكاليف " مفهوم الفقد".
- المعلومة وفق مفهوم (شانون) هي: القياس الكمي لعدم اليقين في رسالة ما وفق درجة احتمال كل إشارة مكونة لهذه الرسالة.
- يطرح (ويفر) ثلاثة مستويات من المشكلات المتعلقة بالتواصل: المستوى الأول: بأي دقة يمكن نقل رموز التواصل؟(مشكلة تقنية)، المستوى الثاني: بأي دقة تعبر رموز التواصل عن المعنى المطلوب (مشكلة دلالية)، والمستوى الثالث: بأي نجاعة يؤثر المعنى المحصل في سير المعنى المطلوب؟ (مشكلة النجاعة).
- سواء تعلق الأمر بالعلاقات بين الآلات، أو الكائنات البيولوجية، أو المؤسسات الاجتماعية، فإن صيرورة الاتصال ما هي إلا استجابة لبنية خطية ترى في الاتصال صيرورة عرضية.
- "العرضية" معناه أن الاتصال يتأثر بظواهر عشوائية، تقع بين مرسل حر في اختيار الرسالة التي يريد بثها، ومتلقي يستقبل هذه المعلومة في سياق تكثر فيه الاكراهات.
- أهم مفاهيم هذا النموذج هي: المعلومات، نقل المعلومات، التشفير وفك التشفير، إعادة التشفير، الإطناب والتشويش، حرية الاختيار.
- النموذج المكتمل (لشانون) قد أسس لمقاربة للتقنية تختصرها في بعدها الأداتي الاستخدامي، إنه أفق يستبعد كل طرح إشكالي يعرف التقنية بمصطلحات غير مصطلحات الحساب والحوسبة والتخطيط والتنبؤ.

- **الأبعاد السبعة للتواصل وفق النموذج:**

بالاعتماد على كثير من الدراسات لباحثين معاصرين في التواصل، يمكن أن نستخرج (حسب ما ذهب إليه إيف وينكين) سبعة مبادئ لتشغيل نموذج الاتصال الناتج عن أعمال (شانون وويفر):

- ❖ **عندما نعتبر التواصل عملا فرديا، فإن الآلية التي تؤسسه هي التي تحول الأفكار الداخلية إلى كلام خارجي، إذ يبدأ التواصل من داخل فرد وينتهي داخل فرد آخر.**
- ❖ **وعليه، فالتواصل نشاط لغوي أو شفهي أو كتابي. عبارة عن سلسلة من الكلمات تنتقل من عقل لآخر عبر الفم والأذن أو عبر اليد والعينين.**
- ❖ **وحيث أن التواصل لغوي، فإنه يكون عقلانيا وإراديا، ومن هنا فإنه من خصائص الإنسان ولا يمكن الحديث عن التواصل عند الحيوان، وخلاف ذلك في حالات الحركات المشفرة التي اتفق عليها صراحة، كما هو الشأن في لغة الصم البكم.**
- ❖ **إذا كان التواصل عملية إرادية وواعية، إذ ذاك تقويمه جماليا وأخلاقيا، كما يمكن أن ينجح أو يفشل، ويمكن أن يكون جيدا أو سيئا، عاديا أو مرضيا، ناجعا أو مشوشا.**
- ❖ **إن التواصل سلسلة من مقاطع "مرسل - متلقي"، يتبادلان الأدوار خطية ومتتالية.**
- ❖ **تحديدا، كما هو الحال في المختبر، يمكن الباحث أن يعاين أو ينتج مقاطع تواصلية، فيتموقع خارج النظام المدروس أو يبحث عن تحييد التأثيرات المحتملة لمعاينته النظام بعدة وسائل تقنية إحصائية.**
- ❖ **يمكن إدراج نموذج التواصل الفردي بسهولة بواسطة صورة " التلغراف" فعملية الإبراق هي عملية لغوية قصدية وخطية ومحدودة في الزمان والمكان.**

2. نموذج الاتصال على مستويين :

- **البدايات الأولى:**

في الأربعينيات والخمسينيات، حددت السوسيولوجيا الوظيفية لوسائل الإعلام مسألة التجديد في اكتشاف عناصر وسيطة بين نقطة البدء ونقطة النهاية في صيرورة الاتصال، فقد أعادت النظر في المبدأ الآلي (لهارولد لاسويل) حول التأثير المباشر غير المكيف حسب الوضعيات، وبالتالي التدليل السطحي على التأثير الجمعي الحشدي، للمجتمع الجماهيري، وقد شكل بحثان رائدان أساسا لظهور هذه النظرية الجديدة حول العناصر والمتغيرات الوسيطة.

فالدراسة الأولى، التي حملت عنوان "اختيار الشعب" نشرت سنة 1944، من طرف (لازارسفيلد وزميليه: برنار بيرلسون و هازل غودي) أما دافعهم الأساسي في عملية البحث فقد كان قياس تأثير وسائل الإعلام على 600 ناخب من (إري كاونتي) في (أوهايو) خلال الحملة الانتخابية الرئاسية سنة 1940، مستخدما في ذلك تقنية "البانل" – نموذج من تقنيات البحث تخضع فيه عينة من الأشخاص لمقابلات متكررة لفترة زمنية معينة- . أما الدراسة الثانية، التي ظهرت سنة 1955، تحت عنوان: "التأثير الشخصي: الدور الذي يلعبه الأفراد في تدفق وسائل الاتصال"، فقد كتبها (لازارسفيلد و إيلهيو كاتز) معتمدين فيها على معطيات ميدانية تعود إلى عشر سنوات سابقة، ويتعلق الأمر أساسا بدراسة سلوك المستهلكين في عالم الأزياء والترفيه، ولا سيما المحددات التي تحكم اختيار الأفلام. فبتحليل صيرورة اتخاذ القرارات الفردية لعينة نسوية من 800 امرأة في مدينة يصل عدد سكانها إلى 60000 ساكن (مدينة ديكاتور بإيلينوا) اكتشفوا – كما ظهر في الدراسة السابقة – أهمية " المجموعة النووية"، وهو ما جعلهم يقاربون تدفق الاتصال باعتباره صيرورة تتم على مرحلتين، حيث يعتبر دور "قادة الرأي" مركزيا، إنها نظرية التدفق على مرحلتين Two-step Flow.

- **الخلفية المعرفية للنموذج:**

إذا كان اكتشاف المجموعة النووية والمستوى التوسطي من طرف لازارسفيلد ومعاونيه، قد مثل شيئا جديدا في التحليل الوظيفي لوسائل الإعلام، فإن الأمر يختلف بالنسبة لنماذج المقاربات الاتصالية الأخرى. ففكرة " المجموعة النووية" تعتبر في الأساس، أحد المكونات البحثية لمدرسة شيكاغو، إضافة إلى ذلك، فإن التقاليد البحثية حول " الآثار غير المباشرة" على الأطفال والشباب، قد عرفت أوجها في الولايات المتحدة مع ظهور تقرير مؤسسة (باين)، وقد سبق كل ذلك، الأعمال الرائدة للألماني (هيغو مانستربرغ) الذي يعتبر أحد الممثلين الأوائل لعلم النفس التجريبي، من دون أن ننسى الأبحاث الأولى لرائد علم النفس الاجتماعي الصناعي (ألتون مايو) الذي أكد في الفترة بين 1927 و 1932 دور المجموعات النووية والوظائف غير الظاهرة لتحسين الإنتاجية.

لكن الفرضية المركزية التي أحدثت انعطافا في مسألة الانتخاب السياسي التي تبنتها أول دراسة بحثية للازارسفيلد ، تم استحياؤها مباشرة من أعمال (كير ت لوين) فقد أسس (لوين) – الذي يشترك مع لازرسفيلد في أصوله النمساوية- مركز أبحاث ديناميكية الجماعة بمعهد مساشوساتس للتكنولوجيا سنة 1945، بعد أن درس أكثر من عشر سنوات بجامعة (إيوا)، حيث أشرف على إدارة مركز بحث "رفاه الطفولة" وقد نشر (لوين) سنة 1935، كتابا حمل عنوان: " نظرية ديناميكية للشخصية"، أتبعه في السنة التي تلتها، بكتاب:" مبادئ علم النفس الطوبولوجي"، وقد اهتم بآليات اتخاذ القرار ضمن الجماعة، وظاهرة قادة الرأي و "ردات أفعال" الأعضاء على الرسائل التي يتم بثها حسب أنماط تواصلية متعددة، وقد تجلت وتحددت، خلال هذه التجارب، فكرة حارس البوابة أو المتحكم في تدفق المعلومات، باعتبارها وظيفة يقوم بها "قادة الرأي" غير الرسميين. ويذهب كل من (ملفين ديفلر وساندرابول روكيتش) على أهمية المدخلين الخاصين بالفروق الفردية والعلاقات الاجتماعية في بناء هذا النموذج.

- **الأفكار الأساسية للنموذج:**

حتى نسهل مراجعة الأفكار الأساسية للنموذج سنحاول تبسيطها في مجموعة من النقاط التالية:

- **الفكرة الأساسية للنموذج يلخصها كاتز ولازارسفيلد في قولهما :" يبدو أن سيل الأفكار ينتقل من المذياع والصحافة في اتجاه قادة الرأي، ومن هؤلاء نحو أفراد المجتمع الأقل دينامية".**
- **إن العلاقات الاجتماعية غير الشكلية تشكل عوامل غاية في الأهمية، تدخل بين الرسالة الإعلامية والمتلقي، وتحدد ليس فقط الطريقة التي يختار فيها الأشخاص مضامين الإعلام، بل أيضا طرق تفسيرهم لهذه المضامين وأساليب ردود أفعالهم عليها.**
- **نوع العلاقات الاجتماعية لشخص ما تجسد عاملا مهما، يؤثر في كيفية وصول معلومات إعلامية لشخص آخر وفي كيفية استخدام هذا الآخر لتلك المعلومات لاحقا.**
- **فيما يتعلق بمواصفات قائد الرأي، فإن القائد المحلي يمارس تأثيراته على المجموعة في موضوعات متعددة الأشكال. وهناك اتجاه عكسي يميز قائد الرأي غير المحلي(موسوعي) الذي يتصف بأنه نوعي وانتقائي في شبكة علاقاته الشخصية، وأنه عاش معظم حياته خارج الجماعة التي ينتمي إليها والتي عاد إليها كغريب، إلا أنه يتمتع بكفاءات خاصة وبالتالي بسلطة فيما يتعلق بموضوعات معينة، وهو يستهلك عادة أنواعا راقية من المنتجات الإعلامية، ويوظفها بطريقة تختلف عن طريقة القائد المحلي الذي يبني جزءا كبيرا من سلطته على كونه شخصا معروفا من جميع أفراد الجماعة.**
- **يعتقد (ميرتون) أن عملية التأثير الشخصي تتحرك أيضا في اتجاه أفقي، أي التأثير داخل الطبقة الواحدة عكس التأثير الهرمي من القمة إلى القاعدة.**

- **ثلاثة مراجعات للنموذج:**

❖ **لا بد من التنويه بأن سلسلة التأثيرات هي في حقيقتها أطول بكثير وأكثر تمفصلا مما تعرضه فرضية التأثير على مرحلتين، هذا بالإضافة إلى أن تبدل الموضوعات المطروحة داخل مجموعات الانتماء يؤدي إلى تبادل المؤثرين والمتأثرين أدوارهم، أي من يضطلع بدور قائد رأي في مجموعة الانتماء فيما يخص موضوعا معينا قد يترك مكانه لغيره أثناء مناقشة موضوع آخر.**

❖ **اعترض (ديشتر) على طريقة (لازارسفيلد) وعاب عليه استثماره وتثمينه المبالغ فيه لسبر الآراء والاستبيانات المبنية بطريقة مغلقة (الموضوعات المغلقة)، وذلك على حساب الاستبيانات العيادية، والتحليل النفسي، والأنثروبولوجيا الثقافية، ذلك أنه قد جانب الصواب عندما أخذ بالتقليد الرياضي (لأدولف كيتلي) بدل اعتماد المقاربة الفرويدية.**

❖ **يذهب (بوكليمان) إلى أن مرحلة هيمنة التلفزة أعفت قادة الرأي، بشكل كلي تقريبا، من وظائفهم المرتبطة بفلترة المعلومات الصادة عن الشاشة الصغيرة، بسبب ما تبثه هذه الأخيرة من موضوعات ومعلومات وآراء يتابعها المتلقي في أوقات فراغه، وأن معظم الرسائل التلفزية يتم تلقيها بصورة مباشرة، دون المرور بمستوى الاتصال الشخصي، ولهذا فإن دور الاتصال الشخصي ينصب على الحوارات الشخصية التي تتم في المجموعة حول مضامين الإعلام الجماهيري، أي أكثر مما يستخدم كأداة لتمرير تأثير الإعلام على المتلقين. وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للتلفزيون، فمع ظهور شبكة الانترنت والميديا الاجتماعية، نرى انه من الضروري جدا مراجعة النموذج .**

أسئلة للتقويم الذاتي:

- ❖ **حدد أهم الفروقات بين النموذجين من حيث (الاتصال، اتجاه الاتصال، تأثيرات الاتصال)؟**
- ❖ **ما هي خصائص قادة الرأي الجدد في الميديا الإجتماعية؟**
- ❖ **أي النموذجين يصلح لتفسير الميديا الإجتماعية، ولماذا؟**